الملتقى الوطني: إسهامات علماء الجزائر في العلوم الإسلامية -التفسير والمفسرون -

يومي: 17–18 نوفمبر 2025م قسم العلوم الإسلامية كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة غرداية

The Contributions of Algerian Scholars to the Islamic Sciences

Theme: *Qur'anic Interpretation and Exegetes*

Dates: 17–18 November 2025

Organized by :
Department of Islamic Sciences,
Faculty of Social and Human Sciences,
University of Ghardaia

عنوان المداخلة:

إسهامات علماء الجزائر في تنزيل الآيات على الواقع

مبارك الميلي والبشير الإبراهيمي أنموذجا

Paper Title:
The Contributions of Algerian Scholars in Applying Qur'anic Verses to Lived Reality:
Mubārak al-Mīlī and al-Bashīr al-Ibrāhīmī as Case Studies

Dr.Meriem Bouafia

الدكتورة: مريم بوعافية.

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن إسهامات علماء الجزائر في توظيف تفسير القرآن الكريم خدمة للواقع، وذلك من خلال نموذجين بارزين يعدان من أبرز رموز التفسير الإصلاحي في الجزائر وهما الشيخ مبارك الميلي والشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وقد أظهرت الدراسة اتفاق الشيخين في وحدة المقصد القرآني الإصلاحي، المتمثل في الدعوة إلى تصحيح العقيدة، ومحاربة البدع، وربط الإيمان بالعمل، وتفعيل القيم القرآنية في نهضة المجتمع؛ وفي مقابل ذلك كشفت عن تنوّع المنهج وتباين مجالات التنزيل بينهما؛ فمبارك الميلي اتجه إلى تأسيس الوعي الديني بمعالجة الانحرافات العقدية، بينما ركّز البشير الإبراهيمي على إحياء الأمة وبعث روح المقاومة والتحرر في تجربة رائدة جسّدت فاعلية التنزيل القرآني في خدمة الواقع.

الكلمات المفتاحية: تنزيل الآيات– الميلي – الإبراهيمي – التفسير الإصلاحي – الواقع الجزائري .

Abstract:

This research aims to uncover the contributions of Algerian scholars in employing Qur'anic interpretation to serve the realities of their time, through two prominent figures who stand as leading representatives of modern reformist exegesis in Algeria: **Sheikh Mubarak al-Mili** and **Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi**.

The study reveals that both al-Mili and al-Ibrahimi shared a unified reformist Qur'anic objective — calling for the correction of creed, the eradication of innovations, the linkage between faith and action, and the activation of Qur'anic values for the revival of society. In contrast, it also highlights the diversity of their methods and the variation in the domains of application: **al-Mili** focused on building religious awareness by addressing doctrinal deviations, while **al-Ibrahimi** concentrated on reviving the nation and inspiring resistance and liberation — a unique experience that embodied the dynamic role of Qur'anic application in serving societal reality.

Keywords: Algerian scholars – Application of Qur'anic verses to reality – al-Mili – al-Ibrahimi – Reformist exegesis.

مقدمة:

اشتهر عدد من بلاد المسلمين في العصر بأعلام أفذاذ رفعوا راية التفسير؛ ومن تلك البلاد التي لمعت جهودها في هذا الباب الجزائر المحروسة، فقد حمل لواءه علماء أجلاء سخروا حياتهم خدمة لكتاب الله تعالى، وبذلوا نفيس أوقاتهم بيانا لمعانيه بحسب حاجات الناس واختلافاتها، ووفق ما يقتضيه الواقع؛ حيث كان لعلماء الجزائر في عصر النهضة والإصلاح إسهام وافر في ربط الآيات بواقعهم، من خلال جهودهم الإصلاحية والفكرية التي استمدت روحها من القرآن الكريم، وجعلت منه منطلقا لبناء الوعي الديني والاجتماعي، وفي هذا الإطار يبرز كلّ من الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ مبارك الميلي بوصفهما أنموذجين رائدين جسّدا فاعلية التنزيل القرآني في الفكر التفسيري الجزائري الحديث؛ فقد اتجه الإبراهيمي إلى إحياء الروح الإسلامية في الأمة واستنهاضها للتحرر من قيود الجهل والاستعمار، بينما ركّز الميلي على تأسيس وعي دينيّ علميّ يصحّح العقيدة وينقّيها من شوائب الشرك والخرافة، في منهج يجمع مقاصد التنزيل ومتطلبات الواقع.

انطلاقا من ذلك، جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ **"إسهامات علماء الجزائر في تنزيل الآيات على الواقع: مبارك الميلي ومحمد البشير الإبراهيمي أنموذجا"** لتعطي لمحة عن مسألة تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، مع إبراز جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في كتابه الشرك ومظاهره ومبارك الميلي من خلال كتابه الآثار، في محاولة للكشف عن ملامح هذا الاتجاه الإصلاحي في التفسير الجزائري، من خلال تحليل تطبيقي يبرز كيفية توظيف العالِمَين لآيات القرآن الكريم في خدمة قضايا واقعهم، ويستجلي أوجه الاتفاق والاختلاف في رؤيتهما لمفهوم التنزيل ومجالاته.

وتتمحور إشكالية البحث حول مدى إسهام علماء الجزائر في تفعيل مفهوم تنزيل الآيات على الواقع، وكيف تجلّى هذا الإسهام في التجربة التفسيرية لكلّ من الميلي والإبراهيمي؟

ويهدف إلى المساهمة في التأصيل لقضية التنزيل على الواقع، وإظهار مدى الترابط الوثيق بين التفاسير الجزائرية المعاصرة وبين متطلبات زمانها ومكانها، مع إبراز جهود الشيخين في تنزيل الآيات على واقع الجزائر المعاصر والتمثيل لأوجه الاتفاق والاختلاف بينها.

المطلب الأول: مدخل تمهيدي.

يحسن بالباحث قبل أن يطرق باب الدراسة التطبيقية في بحثه أن يقدم لها بمقدمات نظرية تكون بمثابة الأطر التي تحدد مجال البحث وتزيل ما قد يظهر في عنوانه من لبس؛ ومن هذا المنطلق جاء هذا المدخل التمهيدي ليتناول في فرعه الأول مسألة تنزيل الآيات على الواقع من حيث تأصيلها وضوابطها، وفي الفرع الثاني قدمت لمحة موجزة عن حركة التفسير في الجزائر خلال القرن الرابع عشر الهجري، وهو العصر الذي برز فيه العالِمان محلّ الدراسة، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ مبارك الميلي، في سياق النهضة الإصلاحية الحديثة.

الفرع الأول: مسألة تنزيل الآيات على الواقع.

اجتهد عدد من المفسرين في ربط آيات القرآن الكريم بواقعهم وعصرهم، رغبة منهم في توثيق الصلة بين أهل زمانهم ومستجدات عصرهم، وبين ما جاء به القرآن الكريم بعد أن اتسعت الهوّة بينهما خاصة في العصر الحديث، حيث اشتدت الحاجة إلى ربط الناس بكتاب ربهم وبيان أن آيات القرآن الكريم صالحة لكل زمان ومكان.

أولا: معنى تنزيل الآيات على الواقع.

تعد مسألة "تنزيل الآيات على الواقع" من بين القضايا التي اشتهرت في العصر الحديث تنظيرا وتطبيقا، بينما اهتم بها السلف من العلماء والمفسرين لكن لم ينظروا لها؛ إذ التعريف بها جاء متأخرا ولم يتطرق إليه إلا عدد من المعاصرين، ومن تلك التعريفات ما يأتي:

أ. تعريف عبد العزيز الضامر قال: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواءً كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية"[1].

وهذا التعريف من أهم التعريفات التي حاول فيها صاحبها تحديد معالم الموضوع وإبراز حدوده، وقد اعتمده جملة من الباحثين بعده[2].

ب. تعريف هشام شوقي قال: "هو محاولة المفسر ربط معنى الآية القرآنية بما يقابلها من الأحداث

---

[1] تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، ص25.

[2] منهم يحي بن محمد زمزمي في بحثه. ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، ص25.

الواقعة في المجتمع زمن تفسيره لكتاب الله، وذلك للسير وفق التوجيهات الربانية في القضية محل الدراسة"[1].

وهذين التعريفين أهم ما قيل في بيان المراد من "تنزيل الآيات على الواقع".

ويمكن القول أن مسألة "تنزيل الآيات على الواقع" تطلق ويراد منها: **"اجتهاد المفسر في الكشف عن الرابط بين الآية القرآنية وما يقابلها من الأحداث الواقعة في زمانه من خلال تفسيره للآية، بغية إيجاد العلاج القرآني لها"**.

فالمفسر يُعمل فكره ورأيه في إيجاد العلاقة بين آيات القرآن الكريم وواقعه المعاصر، وذلك من خلال تقريب معاني الآيات وربطها بواقع الناس، في محاولة للسير وفق منهج قرآني في علاج قضايا مجتمعه.

وإعماله للرأي إنما يكون وفق ضوابط لأن "كل رأي في الدين لا يستند إلى ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلوه من الآيات، ويعلمه من الكتاب والسنة، أو من الأصول المستمدة منهما على وجه معقول، فهو رد على صاحبه"[2].

ثانيا: أهمية تنزيل الآيات على الواقع في تفسير القرآن الكريم.

تكتسب مسألة "تنزيل الآية على الواقع" أهمية بالغة سواء بالنسبة للمفسر، أو بالنسبة لحاجة الناس إليها لصلاح أحوالهم في الدنيا والفوز بالرضوان في الآخرة.

1. أهمية تنزيل الآيات على الواقع بالنسبة للمفسر، وتكمن في النقاط الآتية [3]:

- توثيق أبرز الأحداث التاريخية في عصره.
- معرفة موقفه من الحدث النازل في زمانه، وكيف تعامل معه.
- التعرف على شيء من سيرته الذاتية.

2. أهمية تنزيل الآيات على الواقع في حياة الناس وواقعهم، ويمكن تلخيصها فيما يلي[4]:

---

[1] تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، ص53.

[2] أسرار التنزيل، محمد الخضر، ص239. وينظر ضوابط تنزيل الآيات على الواقع في رسالة: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص89 وما بعدها.

[3] تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص79- 82.

[4] تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، يحي بن محمد زمزمي، ص25.

– زيادة توضيح معاني الآيات وتقريبها للأفهام والعقول، فانطباق معنى الآية على واقع يراه الناس عيانا يزيد في إدراكهم لها وفهم معناها ورسوخه في أذهانهم.

– ربط المسلم المعاصر بكتاب الله تعالى، وإزالة الفجوة بينه وبين القرآن، فإذا شاهد المسلم تنزيل الآيات عند المفسرين على واقعهم، استفاد منها وكانت خير حافز ومعين على تنزيل الآيات على واقعه.

الفرع الثاني: حركة التفسير في الجزائر خلال القرن الرابع عشر الهجري.

نبغ عدد من العلماء الجزائريين في علم التفسير منذ العصور الأولى، فحملوا لواء بيان معاني القرآن الكريم، وأسهموا في خدمة كتاب الله تعالى عبر القرون، من أمثال الإمام أبي العباس أحمد الباغائي (ت 354هـ) [1]، والإمام أبي جعفر أحمد بن ناصر الداودي (ت 402هـ)[2]، وغيرهما من الأعلام الذين مثّلوا حلقات متصلة في مسار التفسير الجزائري؛ ومع توالي العصور تواصلت جهود المفسرين في الكشف عن مقاصد الوحي وبيان هداياته، إلى أن حلّ العصر الاستعماري الذي شكّل منعطفا حاسما في مسيرة العلماء؛ إذ اجتمع عليهم واجبان: مقاومة المحتلّ والدفاع عن الهوية الدينية، مع الاستمرار في أداء رسالتهم التعليمية والإصلاحية.

في هذه المرحلة الدقيقة، حمل عدد من العلماء مشعل الإصلاح والتجديد، فجمعوا بين التفسير والتعليم والدعوة، وسعوا إلى ربط الشعب الجزائري بدينه ولغته ووطنه، وقد كان القرآن الكريم في صدارة أدواتهم الفكرية والمنهجية، إذ اتخذوه منطلقا لبناء وعي الأمة ومصدرا للهداية والإصلاح، يستضيئون بنوره لتصحيح العقيدة، ومحاربة الانحراف، وإحياء القيم الإسلامية في النفوس.

ومن بين هؤلاء يبرز الشيخ مبارك الميلي [3]، الذي ولد ونشأ في الجزائر، وخصّص جهده لتأسيس وعي دينيّ علميّ يصحّح المفاهيم العقدية ويطهّر العقيدة من شوائب الشرك، وكذا الشيخ محمد البشير

---

[1] قال عنه ياقوت الحموي: "كان لا نظير له في علوم القرآن والفقه على مذهب مالك". معجم البلدان، ج1، ص325.

[2] قال عنه القاضي عياض: "كان فقيها فاضلا متفننا مؤلفا مجيدا له حظ من اللسان والحديث والنظر". ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج1، ص497.

[3] هو: الشيخ مبارك الميلي (1874–1945)هو عالم جزائري ومصلح ديني وفقيه مالكي، اشتهر بدوره في النهضة العلمية والدعوية في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي. كان عالما في الفقه والتفسير وعلوم القرآن، وألف عدة مؤلفات تتعلق بالعقيدة والفقه والتربية الإسلامية. ركّز في دعوته على التعليم الديني الصحيح، تصحيح العقيدة، ومحاربة البدع والخرافات، مع محاولة تطبيق التعاليم الإسلامية على الواقع الاجتماعي والسياسي لرفع مستوى الوعي الديني لدى المجتمع الجزائري. توفي سنة1945م.

الإبراهيمي[1] أحد كبار أعلام النهضة، الذي تميز بخطابه الإصلاحي الشامل الهادف إلى إحياء الأمة واستنهاضها من غفلتها.

وما سبق ذكره أعطانا ومضات عن الحالة السياسية في الفترة التي عاش فيها كلا الشيخين، والتي أثرت بدورها على الحالة الاجتماعية التي شهدت تقهقرا كبيرا؛ حيث استفحل الفقر والجهل في المجتمع، وفي مقابل ذلك ظهرت فرق عقدية ضالة مناقضة لأصول الشريعة مثل: العلمانية والقاديانية والبهائية.

هذا الواقع المتردي لم يزد الميلي والإبراهيمي إلا إصرارا على الإصلاح، فجعلا من القرآن الكريم منهجا للتجديد والتغيير، واستثمرا التفسير وسيلة لتشخيص علل الأمة ووصف العلاج من خلال تنزيل الآيات على قضايا واقعهم، إيمانا منهما بأن الهدي القرآني صالح لكل زمان ومكان.

يقول مبارك الميلي: "ثم إنك تجد الإسلام خاتمة الأديان، ونبيه خاتم النبيين، وكتابه خاتم الكتب، وهذه الأمة خاتمة الأمم، وهي من جنس تلك الأمم الماضية؛ تقسو قلوبها كما قست قلوبهم، وتفسد عقائدها كما فسدت عقائدهم، وتعصي كما عصوا، وتبتدع كما ابتدعوا؛ فهل من حكمة أحكم الحاكمين ورحمة رب العالمين أن يقصر ما عاب به من قبلنا عليهم، ويدعنا سدى من غير دليل يعرفنا فسادنا وقبيح أعمالنا إذا نزل بنا ما نزل بالأمم قبلنا؟! لقد أحاط ربك بكل شيء علما، ووضع لكل حال حكما، والقرآن الذي فضح من قبلنا هو الذي يفضحنا، والقرآن الذي هدى من تقدمنا هو الذي يهدينا"[2].

وقال البشير الإبراهيمي: "وقد كانت هذه الأمة معرضة عن القرآن مشغولة عنه بما لا يفيد، معتقدة فيه العقائد السخيفة مستغنية عن فهمه بحفظه مع تقصيرها في أداء لفظه، مستعيضة عن تلاوته بتلاوة الأوراد والأذكار، وعن دراسته بدراسة كتب جافّة من وضع المخلوق لا تبعث في النفس نشاطًا ولا تنشر في القلوب حياة ولا تغرس في الأفئدة فضيلة، ولا تقتلع منها رذيلة، ولا تشرف على القلوب المظلمة بنور، ولكنها بدأت اليوم ترجع إلى القرآن وتستجلي أنوار الهداية وأسرار الكائنات من آياته، وتأخذ الحياة قوية من تعاليمه، وكأنها برجوعها إلى القرآن تجدد نفسها وتستأنف في الحياة تاريخها، وعسى أن تنتهي من هذه

---

[1] هو: الشيخ محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي ولد سنة 1306هـ/ 1889م، أحد علماء الجزائر المبرزين ورواد النهضة العاملين، ولد بمدينة سطيف، ساهم في إنشاء جمعية العلماء المسلمين وترأسها بعد وفات الشيخ ابن باديس، كان ينشر مقالاته في جريدة البصائر، له مؤلفات مخطوطة منها شعب الإيمان، توفي سنة 1385هـ/ 1965م. ينظر: الأعلام، الزركلي، ج6، ص54/ الآثار، ج5، ص164 وما بعدها.

[2] رسالة الشرك ومظاهره، ص86.

الوجهة الجديدة إلى غايتها، فتنتهي إلى السعادة والخير" [1].

ويقول منوها بالدور الريادي لجمعية العلماء المسلمين: " نجحت الجمعية أيضا في إلفات الأمة إلى القرآن وفي جمعها عليه وحملها على التدبّر في معانيه، لتأخذ منه كل نفس على قدر استعدادها وتستنير من عبره وزواجره ما يسوقها إلى الخير وينزعها عن الشر حتى يكون المؤمن مسوقا بالقرآن مدبرا به. وسنرى من تأثير القرآن في النفوس ما يحقّق الأمنية التي تاق إليها حكماء الأمم وأعياهم الوصول إليها، وهي الكمال الروحي من طريق سمو الأخلاق وهي الغاية التي وصل إليها سلفنا وما وصلوا إليها إلا بالقرآن.

وقد كانت هذه الأمة معرضة عن القرآن مشغولة عنه بما لا يفيد، معتقدة فيه العقائد السخيفة مستغنية عن فهمه بحفظه مع تقصيرها في أداء لفظه، مستعيضة عن تلاوته بتلاوة الأوراد والأذكار، وعن دراسته بدراسة كتب جافّة من وضع المخلوق لا تبعث في النفس نشاطا ولا تنشر في القلوب حياة ولا تغرس في الأفئدة فضيلة، ولا تقتلع منها رذيلة، ولا تشرف على القلوب المظلمة بنور، ولكنها بدأت اليوم ترجع إلى القرآن وتستجلي أنوار الهداية وأسرار الكائنات من آياته، وتأخذ الحياة قوية من تعاليمه، وكأنها برجوعها إلى القرآن تجدد نفسها وتستأنف في الحياة تاريخها، وعسى أن تنتهي من هذه الوجهة الجديدة إلى غايتها، فتنتهي إلى السعادة والخير"[2].

---

[1] آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص284.

[2] - الآثار، ج1، ص284.

المطلب الثالث: تنزيل الآيات على الواقع عند الشيخين مبارك الميلي والبشير الإبراهيمي.

يعدّ تنزيل الآيات على الواقع سمة بارزة في التفسير الإصلاحي الجزائري، إذ لم يقتصر كلّ من الشيخ مبارك الميلي والشيخ محمد البشير الإبراهيمي على بيان المعنى القرآني، بل سعيا إلى تفعيل دلالاته في معالجة قضايا الأمة الدينية والاجتماعية؛ وقد اجتمعا في جعل القرآن أساسا للإصلاح ومصدرا لتقويم الفكر والسلوك، غير أنّ اختلاف تكوينهما واتجاههما الدعوي أفرز تباينا في منهج التنزيل ومجالاته.

ومن ثمّ، يتناول هذا المطلب دراسة رؤيتهما من خلال قسمين متكاملين، وذلك في محاولة للكشف عن عمق المدرسة الإصلاحية الجزائرية، وتنوّع طرائقها في توظيف التفسير لخدمة الإصلاح الديني والاجتماعي.

أولا: التوافق في الرؤية الإصلاحية ووحدة المقصد القرآني عند الميلي والإبراهيمي.

تجلّى التوافق في الرؤية الإصلاحية ووحدة المقصد القرآني عند الشيخين مبارك الميلي ومحمد البشير الإبراهيمي في جعل القرآن الكريم أساس الإصلاح ومنطلق بعث الوعي الديني والفكري في الأمة؛ فقد نظرا إلى التفسير بوصفه رسالة هداية وتوجيه، لا مجرد تحليل لغوي أو بياني، ودعوا إلى العودة إلى القرآن لفهم مقاصده، وإحياء القيم الإيمانية؛ وهكذا التقت جهودهما على قاعدة فكرية ومنهجية موحّدة، اشتركت في المقصد وإن اختلفت أساليب التعبير عنه.

وقد تجلى ذلك في مناح عدة نمثل هنا بأهم واحدة وهي **الدعوة إلى تصحيح العقيدة ومحاربة البدع:**

آمن كلا الشيخين بأن انحراف الأمة يبدأ من انحراف العقيدة، فكان تنزيلهما للآيات على واقع الجزائري متمركزا حول محاربة الشعوذة والخرافة المنتشرة في الطرق الصوفية.

فلما تحدث الشيخ مبارك الميلي عن باب الدعاء ربط الآيات بواقعه وركز على قضية مهمة جدا وهي الشرك في الدعاء فقال معنونا ب: الشرك في الدعاء: "ولقد فشا في المسلمين دعاء غير الله على شدة إنكار كتابهم له وتحذير نبيهم منه، حتى صار الجهلة ومن قرب منهم يؤثرونه على دعاء الله وحده،

والاستشهاد لذلك بالحكايات عنهم واستيعابها ممل معجز؛ فلنقتصر على حكاية واحدة" [1].

ثم يستشهد بعدها كعادته بحكايات من الواقع، وهنا اقتصر على ذكر واحدة فقط لأن "استيعابه ممل ومعجز" كما جاء على لسانه، فقال: الحكاية العاشورية: "ففي سنة سبع وأربعين قتل شيخنا محمد الميلي رحمه الله، فأتيت من الأغواط، وجاء للتعزية الشيخ عاشور صاحب "منار الأشراف " وملقب نفسه: كليب الهامل، والهامل قرية بالحضنة قرب أبي سعادة، بها زاوية كانت تمده بالمال، فحضرت مجلسه، ولم أشعره بحضوري؛ إذ كان قد اجتمع عليه العمى والصمم، وذلك لئلا يحترز في حديثه أو نقع في حديث غير مناسب للمقام. سمعت في ذلك المجلس بأذني كليب الهامل يحكي مناقضا لدعوة الإصلاح التي اشتهرت يومئذ: أن شيخا من شيوخ الطرق الصوفية كان مع مريديه في سفينة، فهاج بهم البحر، وعلت أمواجه، فلجؤوا جميعا إلى الله يسألون الفرج والسلامة، وكان الشيخ منفردا في غرفة يدعو، فلم تنفرج الأزمة، وعادته أن لا يبطأ عليه بالإجابة، فوقع في روعه أنه أتي من قبل أتباعه، لا لنقص فيه يوجب هذا الإعراض عنه، فخرج على أتباعه مغضبا، يقول :ماذا صنعتم في هذه الشدة؟ فقالوا :دعونا الله مخلصين له الدين بلسان المضطرين إشارة لقوله تعالى: [أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ] النمل: ٦٢، فنكر عليهم اللجوء إلى الله مباشرة، ووبخهم عليه، وعرفهم أن ذلك هو الحائل دون استجابة دعائه، وأنذرهم عاقبة استمرارهم على التوجه إلى ربهم، وأنه الغرق، وعلمهم أن واجبهم هو التوجه إليه وسؤاله، ثم هو وحده يتوجّه إلى الله، فتابوا من دعاء الموحدين، وامتثلوا تعليم الشيخ المخالف لتعليم رب العالمين، وعاد الشيخ إلى غرفته يدعو متوسطا بين الله ومريديه، فانكشفت الغمة، وسلمت السفينة، وحمد الشيخ ثقته بنفسه وفقهه سر البطء عن استجابة دعائه وتفقيهه لأتباعه سر النجاة وصرفهم إلى الثقة به عن الثقة بالله.

هذا معنى ما سمعته من كليب الهامل، ولم أقيد الحكاية حين السماع حتى أؤديها بلفظها وأصورها بنصها، ولم يسعني وأنا في مقام التحذير من الشرك اجتناب إدراج ما ينافي غرض الحاكي في الحكاية حتى تتم ثم أعلق عليها؛ لئلا يعلق بذهن القارئ شيء من الشرك، ولو إلى حين، ولم أميز المدرج في الحكاية؛ لأنه لا يخفى على العارف بحال المعارضين لدعاة الإصلاح الديني.يستدل الشيخ عاشور وأشباهه بأمثال هذه الحكاية على لزوم التعلق بشيوخ الزوايا وتوسيطهم بين العباد وربهم ناسخين بها نصوص الشريعة الكثيرة المحكمة، وتتلقفها منهم العامة بقلوبها، وتتمسك بها في الاحتجاج لإيثار دعاء غير الله، وتعتقد أن ذلك أليق بحالها من أن تخاطب بنفسها أرحم الراحمين؛ سنة المشركين من قديم كما تقدم عن

---

[1] - الشرك ومظاهره، ص 285- 286.

الكلدانيين"[1].

ركّز الشيخ –رحمه الله– هنا على مواجهة مظاهر الشرك والشعوذة المنتشرة في بعض الطرق الصوفية عند حديثه عن الدعاء، فبيّن خطر الشرك فيه، وساق حكاية واقعية تبرز عمق الانحراف العقدي لدى بعض المتصوفة الذين جعلوا الوسائط بينهم وبين الله، واستثمر هذا النموذج لبيان مخالفتها لصريح القرآن الذي يدعو إلى إخلاص الدعاء لله وحده؛ وهكذا تحوّل تفسيره إلى منبر إصلاحي توجيهي يعالج انحرافات العقيدة في الواقع الجزائري، منسجما في ذلك مع رؤية الإبراهيمي الذي جعل الإصلاح العقدي منطلق كل إصلاح ديني واجتماعي.

فمثلما كان الشيخ الميلي حريصا على تصحيح مفهوم الدعاء وتنقية العقيدة من شوائب الشرك، كان الإبراهيمي هو الآخر شديد التحذير من البدع التي غيّبت حقيقة التديّن، فنبّه إلى خطورة الاكتفاء بتلاوة القرآن وحفظه دون تدبر أو عمل بمقاصده، وانتقد ظاهرة قراءة القرآن على الأموات واتخاذه وسيلة للكسب أو التبرك، معتبرا ذلك انحرافا عن الغاية التي أنزل من أجلها، وقد عبّر عن ذلك بأسلوب بياني قوي حين قال: "ولكن ما هو هذا القرآن الذي نكرره في كل سطر؟ أهو هذه الأحزاب الستون أو الأجزاء الثلاثون التي نحفظها وننفق على حفظها سنوات الطفولة العذبة، وسنوات الشباب الزهر، ثم لا يكون حظنا منه عند هجوم الكبر إلا قراءته على الأموات بدريهمات، واتخاذه جُنة من الجِنَّة وغير ذلك من الهنات الهينات؟ إن كان هو هذا فلِم لم يفعل في الآخرين فعله في الأولين؟ ولمَ نرى حفاظه اليوم –على كثرتهم– أنقى الناس من هذه المعاني التي كان القرآن يفيضها على نفوس حفاظه بالأسى؟ ونجدهم دائما في أخريات الناس أخلاقا وأعمالا حتى لقد أصبحوا هدفا لسخرية الساخر، يتكسبون بالقرآن فلا يجديهم، ويقعون في المزالق فلا يهديهم، مع أنهم يقرأون فيه [إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ] فنعم: إن القرآن هو هذه الأحزاب الستون التي نقرأها اليوم بألفاظها وحروفها ونقوشها، منقولا بالتواتر القطعي، محفوظًا بحفظ الله من كل ما أصاب الكتب السماوية من قبله من النسيان والتبديل وتحريف الكلم عن مواضعه. كبر بتواتره عن الاسناد والمسندين، وشهادة المعدلين والمجرحين، قد نيّف على ثلاثة عشر قرنًا ولم يشك المسلمون في حرف منه فضلًا عن كلمة، وفي الأرض عدد حصاها أعداء له يتمنون بقاصمة الظهر أن لو ينطفئ نوره، ويستسر ظهوره، ويرضخون في سبيل محوه من الأرض بما كسبت الأيدي واحتقبت الخزائن من الأموال، وبما أخرجت بطون النساء من الرجال، وبما أنتجت القرائح من مكر واحتيال وكيد ومحال. فلم ينالوا منه نيل إلا مضضا

---

[1] – الشرك ومظاهره، 285– 286.

تنطوي عليه جوانحهم، ووغرا تنكسر عليه صدورهم، وشجى تنثني عليه لهواتهم، وحقدا تغلي مراجله في نفوسهم، وقد أبقاهم الله وأبقى لهم منه المقيم المقعد وهم بهذا الحال وهو بهذا الحال إلى يومنا هذا، فلينم المسلمون ملء جفونهم، ولينعموا بالا من هذه الناحية، وليعلموا أن القرآن أُتِيَ من قبلهم... ولكن سر القرآن ليس في هذا الحفظ الجاف الذي نحفظه، ولا في هذه التلاوة الشلاء التي نتلوها، وليس من المقاصد التي أنزل لتحقيقها تلاوته على الأموات، ولا اتخاذه مكسبة، والاستشفاء به من الأمراض الجسمانية، إنما السر كل السر في تدبره وفهمه، وفي اتباعه والتخلق بأخلاقه، ومن آياته [كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ]، ومن آياته [اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ] [وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون]" [1].

فبهذا الخطاب الإصلاحي القرآني أراد الإبراهيمي أن يعيد الأمة إلى جوهر علاقتها بالقرآن، علاقة تقوم على التدبر والامتثال، لا على التبرك الشكلي أو الطقوس الموروثة، فكان بذلك مكمّلا لرسالة الميلي في الدعوة إلى إحياء الإيمان الصحيح والعمل الصالح في واقع الأمة.

إنّ هذا التوافق بين الميلي والإبراهيمي في الرؤية الإصلاحية ووحدة المقصد القرآني يؤكد انتماءهما معا إلى المدرسة القرآنية التجديدية في الجزائر، التي جعلت من القرآن محور الإصلاح ومصدر الإحياء الديني والفكري، فهو الأداة الفعالة لبناء الإنسان المسلم والوسيلة الناجحة لتصحيح مسار المجتمع، مما جعل تفسيرهما يتجاوز حدود الشرح إلى التوجيه والتقويم، ومن هذا المنطلق المشترك انبثقت مناهج متنوّعة في التنزيل، تشهد على مرونة الفكر الإصلاحي وقدرته على التفاعل مع واقع الأمة.

---

[1] - الآثار، ج1، ص160.

ثانيا: تنوّع المنهج وتباين مجالات التنزيل بين العالِمين.

رغم وحدة الهدف الإصلاحي بين الميلي والإبراهيمي، إلا أنّ غاية كلٍّ منهما من تنزيل الآيات على الواقع اختلفت تبعا لتوجهه الفكري ومجاله الدعوي.

فقد اتجه الشيخ مبارك الميلي إلى ترسيخ الوعي الديني الرشيد من داخل الإطار العقدي والتعليمي، وهو ما يتجلى بوضوح في معالجته لقضية السحر التي عُدّت من أخطر صور الانحراف العقدي في المجتمع الجزائري آنذاك، تناولها في كتابه الشرك ومظاهره معالجة قرآنية عقلية، جمع فيها بين الدليل الشرعي والتحليل الواقعي، منطلقا من قوله تعالى: [وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ]البقرة: 102 وبيّن من خلالها أنّ السحر مظهر من مظاهر الكفر والشرك، وأنّ ما يُزعم فيه من علم بالغيب ليس سوى خرافة تُضعف الإيمان وتُعطل سلطان العقل، مستدلا على ذلك بآيات القرآن الكريم، ومعنونا لذلك بقوله: "السحر: حقيقته وحكمه" ثم قال: "وهذا بعض ما جاء في السحر: قال تعالى: [وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ... الآية]البقرة: ١٠٢

وقال حكاية عن موسى وخطابه للسحرة :[مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ] يونس: ٨١. وقال جل شأنه : [وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى] طه: ٦٩" [1].

بعد أن تحدث الشيخ عن أهم الجوانب التي ترتبط بالسحر من حكمه وأدلته وغيرها من المسائل النظرية، اجتهد في تنزيل معاني الآيات وهداياتها على كل من تأثر بالسحر أو عمل به من أهل زمانه مشنعا عليهم ومبينا بطلان عملهم، فقال: "أبَعْدَ هذا التنبيه وذلك التحذير يتسابق أصحاب هذا الكتاب وأتباع ذلك الرسول إلى ضروب السحر، ويتنافسون في إتقانها، ويفخر فاخرهم بالمهارة فيها؟! تجد بعض المنتسبين إلى بيوت الصلاح أو دور الطرق الصوفية وما أكثرهم! يدجلون على بله العوام بمخاريق سحرية، يوهمونهم بها أنهم ذوو كرامات أولوا تصرف في الروحانيات، وترى بعض من تعلموا القراءة والكتابة يكبون على شمس المعارف للبوني، يأخذون منها أقوالا وأعمالا مبنية على علم الحروف المنظور فيه إلى طبائع الكواكب المزعوم أنها الحاكمة في هذا العالم، فيعتقدون اعتقاد الكلدان، ويلبسون لباس أهل القرآن، كل ذلك لينعتوا بالحكمة، ويشار إليهم بتطويع ملوك الجان"[2].

ثم خصص حديثه وركز على النساء قائلا: " ولوع النساء بالسحر: أما النساء؛ فلا تسأل ... هذه

---

[1] - الشرك ومظاهره، ج1، ص235-236.

[2] - الشرك ومظاهره، ج1، ص238.

تربط الزوج عن زوجه أو تحله، وتلك تبلد الرجل حتى تروج عليه زوجه كل شيء، وماهرة تنزل القمر في القصعة كأن القمر خبزة، ولا تجد في الأغلب من تتزوج إلا وهي متزوده من العجائز بوصايا سحرية ورقى وأدوية وفيهن- لا نكذب- نساء صوالح، ولو عنيت أمتنا بالعلم عنايتها بالسحر، لم تنحرف في حياتها عن سلم الرقي، ولكنها حادت عن سنة التقدم، وأحاطت بها خطاياها، فحاق بها سوء عملها، [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ] فصلت: ٤٦ "[1].

ثم استعرض الميلي انتشار الاعتقاد في الكهان والعرافين، وعدّه سببا من أسباب انحطاط التفكير الإسلامي، مؤكدا أن القرآن دعا إلى محاربة هذه الأوهام لأنها تُناقض التوحيد الذي هو أساس النهضة الدينية والعقلية.

وعليه فإن الشيخ الميلي –رحمه الله- ركّز على الإصلاح العقدي والعلمي، فوظّف الآيات لتصحيح التصورات ومحاربة البدع بأسلوب تحليلي برهاني، بينما اتّجه الشيخ الإبراهيمي إلى الإصلاح الاجتماعي والسياسي، مستثمرا الآيات التي تبعث روح العزة والحرية، بأسلوب بيانيّ مؤثر يخاطب الوجدان العام. وهكذا تكمّل المنهجان في خدمة الهدف القرآني المشترك: نهضة الأمة بالهدي القرآني.

يتّضح من خلال هذا التنوّع المنهجي أنّ الميلي والإبراهيمي جسّدا بجهودهما وجهين متكاملين للمشروع الإصلاحي القرآني في الجزائر: أحدهما يعالج البنية العقدية والفكرية للأمة، والآخر يحرّك وعيها الاجتماعي والسياسي، فكان اختلاف المنهج بينهما مصدر ثراء لا تباين، إذ التقت جهود العالِمين في غاية واحدة هي إحياء الأمة بروح القرآن الكريم، ليبقى عملهما شاهدا على قدرة التفسير على الجمع بين عمق الفكرة وفاعلية الواقع.

---

[1]- الشرك ومظاهره، ص238- 239.

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في رحاب تنزيل الآيات على الواقع عند عالمين جليلين خلصت الدراسة على جملة من النتائج ولعل من أهمها:

- ✓ أظهرت حركة التفسير في الجزائر خلال القرن الرابع عشر الهجري وعيا متناميا بضرورة ربط آيات القرآن الكريم بقضايا الأمة، خاصة في ظل ظروف الاستعمار والجمود الفكري.
- ✓ شكّل كل من مبارك الميلي ومحمد البشير الإبراهيمي امتدادا أصيلا للاتجاه الإصلاحي، مع توظيف واع للقرآن في معالجة الواقع.
- ✓ انصرف الميلي إلى تأسيس الوعي العقدي ومحاربة مظاهر الانحراف والخرافة، مستندا إلى منهج قرآني عقلاني يعيد للعقيدة نقاءها وصفاءها.
- ✓ بينما ركّز الإبراهيمي على بعث الأمة وإحياء روح المقاومة والتحرر، مُفَعِّلًا القيم القرآنية في النهضة والإصلاح الشامل.
- ✓ تكشف تجربة المفسرَين عن أن التفسير في الجزائر الحديثة لم يكن عملا علميا محضا، بل رسالة إصلاحية حضارية استمدت قوتها من القرآن الكريم ومن وعي العلماء بواقع أمتهم.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- آثار محمد البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، 1997م، دار الغرب الإسلامي.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، ط15، 2002م، دار العلم للملايين، بيروت: لبنان.
- تاريخ الجزائر الثقافي، سعد أبو القاسم، ط1، 1998م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: لبنان.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض، ت: محمد بن تاويت الطنجي، ط3، 1403هـ/ 1983م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية. نلت من شاملة
- تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، يحيى بن محمد الزمزمي، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، العدد الرابع، السنة الثانية.
- تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، هشام شوقي،
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق-، عبد العزيز الضامر، ط1، 1428هـ/ 2007م، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.
- رسالة الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد الميلي، ت: أبو عبد الرحمن محمود، ط1، 1422هـ/2001م، دار الراية، الجزائر.